

دور نحوية الكلمة في تبليغ رسالة النص.

أ/ الخثير داودي

جامعة تيارت (الجزائر)

إن الكلمة هي لبنة النص الأولى التي يتم الانطلاق منها، كما أن الحروف المبنوية هي اللبنة الأولى للكلمات، وكما أنّ الأصوات هي المنطلقات الأولى للحروف ذرية بعضها من بعض، ولا يستغني أحدها عن الآخر بتاتا، والحديث هنا سيكون عن الكلمة التي لا تظهر وظيفتها النحوية إلا في التركيب، ولا أقصد بنحوية الكلمة أن تكون مرفوعة في مواطن الرفع، وأن تكون منصوبة إذا سبقها ناصب، وأن تكون مجزومة في مواضع الجزم إلى غير ذلك، فهذا أمر متفق عليه، وإنما المقصود بنحوية الكلمة هنا إذا أضيفت لأختها وقرت موضعها اللائق بها معنى من خلال إحداث التواصل اللغوي بين المرسل والمرسل إليه، ومبنى من خلال إحداث التماسك بين الجمل والتراكيب والأساليب من دون إقحام ولا تعسف، حتى تكون كأنها قطعة قمر ليلة أربعة عشر تنير ما حولها، وبهجة لكل ناظر، لأن في ضمّ الكلمات ونظمها على تباعد مواقعها يزيد صباة لموقعها الجديد وتكون العلاقة بينها وبين مجاوراتها أحكم، ومنى تحصل على هذه المكانة حدث التواصل والتفاعل، ولقد كان ابن هشام الأنصاري ذا التفاتة بارعة عندما أعطى لها مفهوما فضفاضا فقال: « تطلق الكلمة في اللغة على الجمل المفيدة، كقوله تعالى: 'كَلِمَاتٌ مُّؤْمِنُونَ، 100 {إشارة على قوله: 'ربّ ارجعون. لعلّي أعمل صالحا فيما تركت' {المؤمنون، من 99 إلى 100} قائلها {المؤمنون، 100} » وفي الاصطلاح على القول المفرد. (1) والذي نبحت فيه هنا هو كيف تحصل إمامة الكلمة في النص الطويل؟ لا البحث فيها كمفردة واحدة، فابن مالك لم يقل اعتباطا "وكلمة بها كلام قد يوم"، « يعني أن لفظ الكلمة قد يطلق ويقصد بها المعنى الذي يدل عليه الكلام، ومثال ذلك من أنهم قالوا "كلمة الإخلاص" وقالوا "كلمة التوحيد" وأرادوا بهذين قولنا: "لا إله إلا الله" وكذلك قال عليه الصلاة والسلام: "أفضل كلمة قالها شاعر كلمة لبيد" وهو يريد قصيدة لبيد بن ربيعة العامري التي أولها:

ألا كلّ شيء ما خلا الله باطلُ *** وكلّ نعيم لا محالة زائلُ (2)

انظر كم اتسع مفهوم الكلمة على المجاز! وتجاوز لمعناها الاصطلاحي،؟ ثم إنّ هذا البيت هو نقطة الارتكاز المحوري الذي تدور حوله القصيدة التي رثى بها النعمان بن المنذر ملك العرب آنذاك، يلي بعد هذا البيت، هذان البيتان الحكيمان الذي يظهر منهما أنه يخاطب فيهما نفسه المتقلقلة بحزن كامد في أحشائه بحقيقة الحياة التي يعقبها الموت يقول فيهما:

وكُلُّ أناسٍ سوف تدخلُ بينهم *** دويهيّة تصفرّ منها الأناملُ
وكُلُّ امرئٍ يوماً سيعلمُ سعيه *** إذا كُشِّفَتْ عند الإله المحاصلُ

ويختتمها بوقفه تأملية فلسفية زارية لصغر الحياة، وسرعة اضمحلال نعيمها بعدما يطوف في ذكر خرزات الملك وكل ما يتعلق به من فاخرات المتاع، يقول:

وأَمسى كأحلام النيام نعيمهم *** وأيُّ نعيم خلتُه لا يزيألُ
تردُّ عليهم ليلةُ أهلكتهمُ *** وعامٌ، وعامٌ يتبعُ العامَ قابِلُ

فالشاهد من هذا العرض أنه قد تحصل السيادة للكلمة في النص الطويل، وهذه الكلمة قد تكون جملة، وقد تكون عبارة، وقد تكون فقرة، وقد تكون بيتا، كالذي حصل في قصيدة "ليد" وهو الذي يسميه الدكتور حماسة بـ"المرتکز الضوئي" يقول: « إن كل قصيدة مثلا-شأنها في ذلك شأن كل عمل أدبي-مكونة من عدد من الجمل بطبيعة الحال، وكل جملة منها مصوغة وفقا لقوانين المعنى النحوي الدلالي في الاختيار والتفاعل بين المفردات ووظائفها النحوية. هذه المجموعة من الجمل فيها ما يمكن أن نسميه "مرتكزا ضوئيا" قد يكون واحدا أو أكثر، ويمكن تسليط هذا المرتکز الضوئي على الجمل في القصيدة فنتيرها وتكشفها. هذا المرتکز الضوئي قد اخنيرت عفويا كلماته بدقة وأحكمت علاقاته النحوية بعناية فاستحق بذلك لأن يكون مفتاحا للقصيدة يفتح الباب التركيبي للدخول في عالمها الرحيب.»⁽³⁾ ويكون ناجحا تطبيق هذا المصطلح على القصائد المخلصة التي نبعت من نفثة المصدر، أو زفرة المهموم، أو صيحة المهزوم، أو لوعة المغروم، وخاصة من الجاهليات المعتقات التي كلما مرّ عليها كزّ الدهر لم تظهر عليها علامات الفقر، بل تزيد كلما زاد عليها طور السنين سطوعا كالغزة المحجلة في جبين الفرس، لا لشيء إلا لنحوية مفرداتها الماسكة بتراكيبها، ولنحوية معانيها الماكنة في كلماتها وسياقها، وقائلها قد يكون أعرابي معتق العروبة كان يستبكيه الربع، وهو يعيش حضورا دائما عبر طيات التاريخ الذي يمد بذكر شعره طريا، كيف يستطيع هذا الأعرابي وقد يكون صعلوكا لا شأن له ولا معنى آنذاك سوى الإغارة على قوافل العرب، أن يسجل أدبه بقوة على صفحة التاريخ ولو بنزر قليل من الشعر؟ الجواب هو: أن السرّ في "نحوية كلمته" المركوزة في طبعه، وهي على طرف لسانه أحدّ من ضربة السيف، وأنفذ من طعنة الرمح.

وفقه المخالفة لهذا، أنّ نجد كبار الأدباء في عصرنا الكثيرين في إنتاجهم، والمبدعين في أفكارهم، يعيشون غربة معرفة في النسيان في الساحات العلمية فلا صبت لهم، ولا هم يعرفون، على الرّغم أنهم يعيشون في عصر أحدث التوصلات، ويملكون أثقل الشهادات، هذا ما يثير سؤالا محيرا! بمعنى هل توجد في العربية كلمة مسنة قد تجاوزها الزمن؟ الجواب هو أنّ طريقة استعمالها وتركيبها يجعلها عجوز على حدّ تعبير امرئ القيس: "مكروهة للثم والتقبيل"، وبالتالي تُقطع صلة الرّحم بين الكاتب والقارئ، لأن الكاتب «معلقٌ بقارئه، فإذا أغفل أن يجعل قراءه على بيّنة من طريقه، كان خليقا أن يصبح فيجد بينه وبينهم سدا مضروبا، يعوقهم عن إدراك حقيقة ما يقول، أو يتركهم في اختلاف يقطعهم عن النفاذ عن الغاية التي من أجلها يكتب ما يكتب. وكم من كاتب في هذه الأرض، على اختلاف ألسنة أهلها، قضى عمره يستصفي للناس عصاره تجاربه في كلمات، ثم خرج من الدنيا وكأنه لم يقل شيئا. ثم يأتي على الناس زمان، فيجدونه قد أبرأ ذمته، وأدى للناس أقصى حقهم عليه، ولكنهم ذهلوا عنه، لعلّة قائمة في بيانه عن نفسه، أو لعلّة قائمة في أنفسهم، حالت بينهم وبين بذل الجهد في متابعته، وفي تقصّي الوجوه التي يحتملها كلامه، فلم يأخذوا عنه إلا أهون ما يقول، وأقرب ما يريد.»⁽⁴⁾

وذلك أن معانيه دعية في تراكيبيها لا نبض فيها ولا خفق، ولا رعد فيها ولا برق، وهكذا يضيع عمر الكاتب سدى في دوامة من الوهم بسبب الكلمة التي تسيء إلى الفهم، وبهذا يضيق صدر القارئ من ضنك النصوص التي ذبحت مبانيها، وسلخت معانيها.

إن في طاقة الكلمة المختارة من منظور نحويٍّ موقِّقٍ أن تحمل رسالة نصٍّ كامل من دون جمجمة ولا بخس، إذا نحن أغمضنا في أسرارها المطموسة في سطحها، ودفائننا المغروزة في عمقها، ويكون أثرها فاعلا في فتح الأذان الصمّ والعيون العمي والقلوب التي أصابها داء الرآن، وما جدوى الكلمة لولا معناها الذي نبحت عنه في عباراتها وسياقها لأن « المعنى هو همّ "المتكلم" حين يعمد إلى العبارة عن ذات نفسه، جاهدا أن ينفى عن مراده اللبس، وهو همّ "السامع" حين يجهد في الفهم عن المتكلم واستبانة مقاصده، من غير أن يجعل لعوارض اللبس والغموض سلطانا على معقوله، وهو همّ "النحوي" أو "اللغوي" في جهده الناصب وراء الربط بين "المباني" و"المعاني" وبين "الشكل" و"الوظيفة".»⁽⁵⁾ ومن لم يسحضر "همّ الفهم والإفهام" فإنه يحرم قارئه من معرفة الحقائق إذا كان كاتباً، ويحرم سامعه إذا كان متكلماً، ويحرم نفسه إذا كان سامعاً، وربّ كلمة أصابت موقعها أثّلت لمجد كاد أن يضيع، أو غيرت منحى إنسان كان يتخبّط في ظلمات أدغال الفكر الدخيل، أو أزاحت همّاً متراكماً جاثماً على قلوب أبرياء لا يستطيعون الإبانة، والأمثلة في تراثنا العربي أكثر من أن تحصى.

وسأضرب مثالا واحدا هنا، على دور نحوية الكلمة في تبليغ رسالة النصّ، أبيات معرّلة على مارج الهمّ والإبء، جاشت بها قريحة سلمي بن ربيعة الضبي بن زيان الضبي وهو من العهد الجاهلي، وهي أبيات لو عرضناها على طلابنا اليوم -إذا لم أقل أساتذة- في قسم اللغة والأدب العربي، لاستوحشوا منها وظنوا أنهم أمام متن جبّري رياضي خلوا من كل المعاني، ولن أكون أنا متواضعا تواضعا باردا إذا قلت لولا تحليل أبي فهر رحمه الله لها لما انتشيت بخمر بيانها المستودع في حسن اختيار كلماتها، يقول سلمي:

إن شواءً ونشوةً *** وخبب البازل الأمون
يُجشمها المرء في الهوى *** مسافة الغائط البطين
والبيص يزفّن كالدُمى *** في الرّيط والمذهب المصون
والكثّر، والخفص أمنا *** وشرع المزهر الحئون
من لذة العيش، والفتى *** للدهر، والدهر ذو فنون
واليسر للعسر، والغنى *** للفقير، والحي للمنون
أهلكن طسما ويعده *** غذي بهم وذا جدون
وأهل جاش ومأرب *** وحي لقمان والتقون

يقول "أبو فهر" معلقاً، لما عانى القراءة لها التي تزيد من حيوية النصّ ودفئه، كما يليق بأي نص رفيع: «فأي نغم؟ وأي نشوة؟ وأي حزن رقيق؟ وأي استقبال لخير الحياة وشرها بلا خوف ولا تردد؟ وأي قدرة على جعل هذه الألفاظ العربية الشريفة، أوتارا مشدودة على قياس وحساب، حتى تتبعث من تلاوتها أنغام معبرة عن الحياة والموت بأضواء من البيان لا تكسفها الرموز الميتة التي ينفخ فيها النقاد لتحي، وقد بليت وتعفنت في معابد الجهل بالحياة،

وهياكل الضلال عن الحق. ولكن العجب لمن عنده لغة تملك هذه القدرة الخارقة، ثم يضل عنها إلى "إليوت" وأشباه "إليوت"، وذيول "إليوت"، غير مبال أن يخوض بلسانه ولغته في تربة عفنة من التعاقل النفسي المريض، ومن رجيع الحضارة الأوروبية وصديدها المتفتح.⁽⁶⁾ ولنا عودة في مكانها لأبي فهر لنستفيد من منهجه في تذوق الكلام وتحليله في محنته في قضية الشعر الجاهلي.

أما المصطلح "المرتکز الضوئي" الذي صنعه د، "حماسة" فإن نجده في البيت الخامس من هذه الأبيات :

.....، "والفتى *** للدهر، والدهر ذو فنون"

فبعدما يتكلم "سلمي" عن « الندماء، والخروج للصيد، وعقائل النساء الرافلات في الرّيظ، والغنى، والسعة، والدعة، ومجالس اللهو، كلّ ذلك: "من لذة العيش"، ونصيب المرء المختلس من نعم الحياة= وصواب قراءة هذا الشعر أن تقرأه متتابعاً، ثم تقف على منتهى "من لذة العيش" وقفة طويلة. ثم تستأنف خبراً جديداً عن عاقبة هذه الحياة التي تتال طبيباتها، فيقول: "والفتى للدهر"، أي غرض له، يرميه بنوائبه، "والدهر ذو فنون"، أي ذو أحوال مختلفات، لا يدوم على أمر واحد.⁽⁷⁾

إذاً، لقد كان أبو فهر -طيب الله ثراه- محقاً عندما سمى الذي نستورده من المناهج المسقطة على أدبنا بـ: "رجيع الحضارة الأوروبية"، فالعربية لغة فنتية الشباب، ودود في تراكيبها، ولود لمعانيها، لا تحتاج إلى تفسيرات تعسفية لإنتاجها الجميل من بنوية دي سوسير إلى وظائفية أندري مارتينييه، وإلى غيرها من الأسنيات من تحويلية وتوليدية، وتفكيكية وأسلوبية، المتلّفة بكثرة المصطلحات والتقسيمات، التي قد تجعل صاحب النص أحياناً مجنوناً كالذي يتخبّطه الشيطان من المس، ونحن -والحمد لله- أمة عاقلة مكرّمة لا نحتاج لكثير من هذه المناهج والنظريات إلا لمن أبقى وجعل درسه أسيراً لها، ثم إنها قد تقتل المعاني الجميلة في مهدها إذا نحن ركبناها من دون فحص. وليس هذا دعوة للانغلاق وإنما دعوة للانتباه والحوار المنضبط.

إنّ الكلمات ما لم تكن منتقاة نحويًا لا تخدم تراكيب النص بل قد تكون خاوية على معانيها لأن « الاختيار الدقيق للكلمات في نظامها النحوي هو أساس المعنى الذي يبحث عنه النقاد في العمل الأدبي، وكل معنى بعد ذلك مبني في حقيقته على هذا المعنى الذي يعطيه هذا الاختيار. وهنا تكمن عبقرية الشعراء الأفاضل في استيلاء الكلمات معاني جديدة لم تكن لها قبل أن توضع في هذه التراكيب التي يختارونها.⁽⁸⁾ وإن الشاعر أو الناثر على حدّ سواء، الحاذق منهم كالقوّاس الماهر لا يرسل سهام جعابه دفعة واحدة وإنما يتريص ويتحين الفرصة ليغرّز سهامه في سويداء قلب المتلقي، ليكون نصه ذا رسالة وقصد قابل لتعدد القراءة وتعدد الحكم عليه، لأن نحوية الكلمة لها دلالة لا تقوم على ساق واحدة من معناها المعجمي فحسب، بل هناك معنى وظيفي ومعنى سياقي وهذان الأخيران يكونان في النص، وما فضّلت النصوص الأدبية على بعضها بعضاً إلا بصنع حياة للكلمة من حيث اختيارها، وحسن توظيفها.

قد تكون معرفة التراكيب الحبلية بأوابد المعاني عصية على الفهم، إذا لم يكن القارئ أو المتلقي نحويًا في قراءته للنص، وذلك بأن يكون ذا حنكة في ممارسة استنباطات فحول النظّر على كلام الفحول من العرب، كشرح المعلقات للرزوني أو التبريزي مثلاً، وهذا هو النحو الوظيفي التطبيقي الذي فقدناه في جامعاتنا اليوم. ولقد كان د، سعد مصلوح ذا بعدا فكريا واسعا عندما أعطى علم النحو جبةً فضفاضةً تصلح بأن يقطع منها لباساً، أي متكلم، أو

سامع، أو قارئ كل بما تيسر له، فقال بأنه: « العلم الكاشف عن أسرار المباني اللغوية في ارتباطها بالمعاني الذهنية والنفسية، وهو الذي تتجلى به عبقرية اللغة وإمكاناتها في العبارة عن ذات العقل وذات النفس.»⁽⁹⁾ لأنه ليس من السهل استكناه رسالة النص الحديدي أسلوبه، والواجمة طلائعه، إذا لم يعرف منافذه المثلثة التي تترك بالنعو، وهذا النحو تتكون ملكته "الفكرية" بالتعهد للقراءة والجلد عليها، وكذا ذهن في معرفة الغريب، والمتكتم، من المفردات والجمل والتراكيب والأساليب للنصوص القوية، فلا جملة بلا مفردة، ولا تركيب بلا جملة، ولا نص بلا تراكيب، وكل ذلك مشدود بعصب النحو، بمعنى لا نص من دون نحو، وكما يقول د، حماسة: « ليس المعنى النحوي بطبيعة الحال منعزلا عن النص، أو يمكن أن يكون كذلك، ولذلك ينبغي النظر دائما إلى المعنى النحوي بوصفه الجدلية المزدوجة المفوتلة بإحكام من المفردات والنظام النحوي معا، المنصهرة في بوتقة "الاختيار" بينهما بحيث تتكون دلالة الكلمة الحقيقية في سياق بعينه وتكون جزءا من دلالة الجملة كلها، ومن هنا تكون دلالة الكلمة حصيلة لاجتماع المعنى النحوي والمعنى المعجمي في سياق مخصوص.»⁽¹⁰⁾

فحوية الكلمة في مواقعها الحسان تزيد في تماسك النص فتحرّض أساليباً على أساليب أو تقدح زناد تركيب على تراكيب، وهذا الذي جعل بعض النحاة واللغويين يتحولون في أواخر حياتهم إلى مفسرين سواء في النصوص الدينية "القرآن والسنة"، كالزمخشري، أو مفسرين للنصوص الراقية من كلام العرب.

ثم إن المدارس اللغوية والبيانية للنص الديني كان أو الإنسي والاعتكاف على معالجه تجعل الدارس يحظى بولاية الكشف والذوق، وذلك بأن يباشر توافقات عجيبة بين المباني والمعاني، ويستطيع أن يكشف عن مجازات مذهشة تزداد روعة كلما جدد النظر فيها، ويزيد على ذلك بأن يكتسب ملكة لغوية لسانية من ما يتذوقه من تقنيات أعاجيب الأساليب، أضف إلى ذلك أنه يتمتع بجماليات من الصور منها ما يعبر عن أدقّ خلجات النفس الإنسانية وأعقدها، إلى غير ذلك مما لا مجال فيه للعدّ والحصر، مما يحصل من مخالطة سحر البيان.

وكلّ هذا الذي ذكرته بل يزيد حصل لأستاذنا الكبير "أبي فهر محمود محمد شاكر" أيام محنته في قضية الشعر الجاهلي، الذي لولاه ما كان لنا أدب جاهلي ندرسه في العصر الحديث، وملخص هذه المحنة أن النابتة بدأت من مرجليوث بحيث نسف أن يكون هناك أدب جاهلي للعرب لأغراض يطول شرحها، والأدهى من هذا أنه تبنى هذه الفرية الدكتور طه حسين الذي كان اسمه مرادفا لاسم الجامعة آنذاك!! فابنتي بهذه المحنة أبو فهر فكان ما كان! وهو تاريخ طويل عريض، والذي يهمننا هنا أنه تكونت من جراء هذه المحنة ملكة نحوية تذوقية للكلام لأبي فهر من خلال إثباته له، لم تحصل لأحد في العصر الحديث حتى قال هو نفسه عنها: «فأدى بي طول الاختبار والامتحان والمدارسة إلى هذا المذهب الذي ذهب إليه، حتى صار عندي دليلا كافيا على صحته وثبوته. فأصحابه الذين ذهبوا ودرجوا وتبددت في الثرى أعيانهم، رأيتهم في هذا الشعر أحيانا يغدون ويروحون، رأيت شائبهم ينزرو به جهله، وشيخهم تدلف به حكمته، ورأيت راضيههم يستتير وجهه حتى يشرق، وغاضبههم تردُّ به سحنته حتى تظلم، ورأيت الرجل وصديقه، والرجل وصاحبه، والرجل الطريد وليس معه أحد، ورأيت الفارس على جواده، والعادي على رجليه، ورأيت الجماعات في مبادهم ومحضرهم، فسمعت غزل عشاقهم، ودلال فتياتهم، ولاحت لي نيرانهم وهم يصطلون، وسمعت أنين باكيهم وهم للفراق مزعمون، كل ذلك رأيت وسمعت من خلال ألفاظ هذا الشعر، حتى سمعت في لفظ الشعر همس الهامس وحة المستكين، وزفرة الواجد وصرخة الفزع، وحتى مثلوا بشعرهم نضب عيني، كآتي لم أفقدهم طرفة عين، ولم أفقد منازلهم ومعاهدهم، ولم تغب عني مذهبهم في الأرض، ولا مما أحسوا ووجدوا، ولا مما سمعوا وأدركوا،

ولا مما قاسوا وعانوا، ولا خفي عني شيء مما يكون به الحي حياً في هذه الأرض التي بقيت في التاريخ معروفة باسم (جزيرة العرب).»⁽¹¹⁾

والذي نستقيده من هذه التجربة "الفهرية" أنه إذا حصلت ملكة التدوّق التي هي كالفرس المطهم التّيّاه لا تلين لأيّ راكب ما لم يكن له سابق دربة وحكمة ومعرفة في مدارسة وتحليل الكلام، تجعلك هذه الملكة إذا استخدمتها في قراءة نصوص الماضين تجوب بك معالم من الحقائق وأنت تستشعرها تماما، فتمثل بين عينيك، لتسمو بعقلك كلما سرت مع النصّ حيث يسير، بحضور ومهل، فينمو المعنى ويكبر حتى يصير هو منك وأنت منه، لتعيش جواً لا تقا لا يبخص شيئاً من حفاوة المقام، فإما أن تهتز وتنتشي، وإما أن يهبض لك صباغات في الفؤاد مضمدة، أو يحي فيك همّاً مغمداً، أو يثير عليك عجاجاً من الذكريات المعركة في فيافي الماضي، وهكذا حسب رسالة النص، فحسن التدوّق يجعل كلام النصّ يسري في طبيعة الإنسان كما يسري الدم في نياط عروقه، انظر «كيف عبّر الشعر الجاهلي الذي شارف ظهور الإسلام، عن سيرورة الشعر في الناس جميعاً على اختلاف منازلهم وطبقاتهم. يقول المسيب بن علس، وهو جاهلي، وهو خال الأعشى، يثني على رجل أدركه الإسلام بعد ذلك فأسلم، وهو الجواد المعروف "بنتيار الفرات" القعقاع بن معبد بن زرارة بن عدس الدارمي، فأهدى المسيب إليه ثناء وهو مقيم بديار قومه بني ضبيعة، والقعقاع مقيم بأرض بعيدة في ديار قومه بني تميم، قال له:

فلاهدين مع الرّياح قصيدة *** مني معلغة إلى القعقاع
ترد المناهل، لا تزال غريبة *** في القوم، بين تمثّل وسماع

"فلاهدين مع الرّياح"، كلمة بارعة، قصيدة تحملها الرّياح مسرعة منتشرة لا يحتمي منها أحد، "معلغة". حثيثة الانتقال من بلد إلى بلد، "ترد المناهل"، مناهل الماء، حيث ينزل المسافرون في البوادي والقفار، بعد أن قلّ ماؤهم وبلغ منهم الجهد، فتأتيهم هذه القصيدة، فتشفي هي أيضاً ظمأهم، فهي بينهم، "لا تزال غريبة في القوم، بين تمثّل وسماع" غريبة لا تستقر عند راويها. بل يرويها هذا عن هذا، فهم يتناقلونها، كما تتناقل "الغريبة" وهي الرّحى، رحي اليد، فإنها لا تستقر عند أربابها، بل يتعاورونها بينهم يتداولونها فهم بين منشد، وهو "التمثّل" وبين سامع قد منحها أذنه وقلبه مصغياً ليقيدها ويحفظها، وينكفل بإنشادها حيث كان.⁽¹²⁾ فهذا مثال نتعرّف من خلاله على سجيّات العرب في تذوقها للكلام المتوّخي فيه معاني النحو على فطرتهم، بحيث إنهم يدركون مواطن السطوع واللمعان، وتعاف أرواحهم الصافية مواضع الاعوجاج والهديان، كلّ ذلك جبليّ عندهم. ولو -فرضا- سمعوا لكلامنا الذي تعقد له المجالس الرسمية لغشاهم النعاس والتناؤب إذا لم أقلّ قد يصيبهم الغثيان بسببه، لأن نحوية النصّ لا تقاس بكمية الكلمات الرنانة المستعملة في تراكيبه، أو المفردات الوحشية المبتوثة في عباراته، إذا كان ذا مقاطع متذبذبة من حيث توظيفها، تتكس من عبقرية اللغة، فيتحول النصّ إلى ثرثرة لا معنى شريف من وراءها، لأن صاحب النصّ يكون قد سقى طبيعته اللغوية أول مرة من ماء كدر، وعليه فلن يوفّق في توظيف معجمه على ناموس لغة العرب النحوية.

« إن بنية اللغة، بوصفها ترتيباً داخلياً لواحدات النظام في اللغة، لتتمكن من تحريك المعاني بين الغياب والحضور، ولتحويل التماس بين الأشياء والأحداث باللغة، إلى كلام يعبر عن عمق الماضي والتعبير عنه بدلالاته الغائبة، ويحرّك الحال والحضور ليعبر به عن استشراف المستقبل بأبنية لغوية ونظام وترتيب لغوي أيضاً، وبدا فإن

كل ما يحدث قولاً يكون بين مرحلتين أو وجودين: وجود يكون فيه ثم يمضي إلى غياب، ووجود كان فيه ثم يعود بعد مضي إلى حضور، وبذا أيضاً، فإن الفكر يدور مع اللغة حيث تدور، فيعيش فيها بين لحظتين أو وجودين لا تكفّ إحداهما تدور حول الأخرى: الماضي زماناً من غير انعدام، والحاضر مكاناً من غير انقضاء، وعلى ذلك فإن الفكر محتاج لأن يتخذ في اللغة بعدين: الزمان والمكان ليكون دالاً وحدثاً حادثاً، وتوفّر اللغة له ذلك، فتطلقه في الزمان وتعطي لحدوثه فيها أفعال غيابه عنها، ولكنّها قد تدوّنه وتثبتته، فتعطي لوجوده دوام الحضور فيها نصّاً يكتسب دوامه من دوام المكان النصّي الذي فيه الخطاب حاملاً معه تجربة الأجيال السابقة وخبراتها وحضارتها ونتائج تفكيرها ومعطيات ما يحمله جيل إلى جيل، فيحدث التفاعل بين الأجيال والتلاحق والتلاحق بين الأفكار والحضارات منذ فجر التاريخ إلى أن يرث الله الأرض وما عليها.»⁽¹³⁾

ومن ما سبق ذكره نخلص أن للنحو سلطان نافذ على اللغة، لا تتحرك إلا بموجبه، فواجب معرفته بمعرفتها ومخالطتها، لتتلون صبغته في أمشاج كلام المتكلّم، ليحدث التفاعل بينه وبين نفس المتلقي أو المتعلّم، وهذا لمن كانت له فكرة يريد مخاضها، أو تجربة يريد تبليغها، أو حياة يريد أن يعيشها مع الذين يعيشون حياة الذكر والخلد السرمدى بعد الممات، وذلك أنّ في طاقة اللغة أن تزيد في عمر الإنسان القصير الذي يعيشه فوق هذه الأرض أضعافاً مضاعفة بعد موته، فالذين سبقونا وماتوا منذ فجر التاريخ لما شعروا بهذا المعنى وأدركوا هذه الحقيقة، سعوا للعمل لهذه الحياة الثانية، فكانت صفقة رابحة بأن عاشوا مرتين فوق الأرض، الأولى قبل الموت، والثانية بعد الموت بلغتهم التي تترجم فكرهم. ونحن نرهم بمرآة اللغة يصبحون معنا ويمسون، ويأمرون وينهون، وهم أبد لا يغيبون، إلا أنهم أموات مقبورون، ولو عدنا مثلاً لأدبنا العرمرم الجَمّ القديم، لمثلت أمامنا حياة العرب كاملة في كل حقولها بشفرة أحداثها ونشوة أعيادها، بسبب نحوية كلامهم الذي يبلغ الشاهد عنه الغائب عبر الزمان وعبر المكان. وما أشقى على نفس الإنسان أن يعيش أشبه شيء بالجماد من دون هوية لغوية؟! يستطيع بها أن يعرف فكره، ودرجة فاعليته، وقيمة وجوده. (اه)

مرجع الإحالات:

1. شرح قطر الندى وبل الصدى، لابن هشام الأنصاري، تعليق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الطلائع، القاهرة، ص:31.
2. شرح ابن عقيل، تحق: محي الدين عبد الحميد، دار التراث، القاهرة، 1998، ص:14.
3. النحو والدلالة -مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي-: د، محمد حماسة عبد اللطيف، دار غريب، القاهرة، 2006، ص:229، 230.
4. أباطيل وأسما: أبو فهر محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 2005، ص:387.
5. في اللسانيات العربية المعاصرة: د، سعد مصلوح، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 2004، ص: 211، 212.
6. أباطيل وأسما، ص: 294، 295.
7. المرجع نفسه، ص:228، 229.
8. النحو والدلالة ، ص:217.
9. في اللسانيات العربية المعاصرة، ص:210.
10. النحو والدلالة، ص:220.
11. الظاهرة القرآنية : مالك بن نبي، دار الفكر، سوريا، ط9، 2009، ص: 35، 36.
12. قضية الشعر الجاهلي في كتاب ابن سلام، لأبي فهرمحمود محمد شاكر، دار المدني بجدة ص:98، 99.
13. المسافة بين التنظير النحوي والتطبيق اللغوي:أ.د: خليل عمايرة، دار وائل، ط1/ عمان، 2004، ص:98، 99.